الافْتِتَاحِيَّة

الإعلام في مواجهة التّضليل والتّفاهة

لـم تشـهد المجتمعـات الإنسـانيّة تغيُّـرات فـي كثيـر مـن أوجـه حياتها والعلاقـات بين أفرادهـا مثـل تلـك التـي تشـهدها في عالمنـا المعاصـر، مـع التّطـوُّر الهائل والمتسـارع في وسـائل الاتّصـال والإعـلام وفي تقنيّـات اسـتخدامها، حتّـى بـات الاهتمـام البحثيّ بهذه القضيّـة يتجـاوز بُعدهـا الإعلاميّ إلـى أبعـاد اجتماعيّـة وتربويّـة ونفسـيّة وسياسـيّة، وحتّى إلـى مجـالات تتَّصـل بقضايـا أخلاقيّـة وحقوقيّـة؛ مثـل الصّـدق فـي نقـلِ المعلومـات، وحـقّ النّـاس فـي معرفـة حقيقـة مـا يجـري، وعـدم تضليـل الـرّأي العـامّ.

لقـد ذهـب كثيـر مِـنَ الباحثيـن، فـي العقـود القليلـة الماضيـة، إلـى تفسـير العولمـة بالتّحـوُّلات الاقتصاديّـة بمـا هـي توحيـد الأسـواق والسّـلع ورفـع الحـدود الجمركيّـة فـي إطـار منظّمـة التّجـارة العالميّـة. لكـن ثمّـة مَـن يرى، فـي المقابـل، أنَّ دور وسـائل الإعلام والدّعايـة والإعـلان لا يقـلّ أهمِّيّـة عـن دور هـذه المنظّمـة فـي توحيـد الأسـواق. فهـذه الوسـائل هـي التـي روّجـت للسّـلع، وهـي التي عملـت على المسـتويات الثّقافيّة والنّفسـيّة على توحيـد أذواق المسـتهلكين فـي أنحـاء العالـم كافّـة، بغـضِّ النظـر عـن اختلافـات الشّـعوب الثّقافيّـة، وحتّـى عـن حاجاتهـم الفعليّـة لهـذه السّـلع، بحيث بـات مِـنَ المألوف

أن نـرى الإعـلان نفسـه عـن مسـاحيق التّجميـل أو الأزيـاء، أو أدوات التّنظيـف، أو حتّـى الطّعـام، فـي فضائيّـات أميركيّـة وأوروبّيّـة مثـل مـا نـراه فـي فضائيّـات أفريقيّـة أو آسـيويّة أو عربيّـة وإسـلاميّة.

لقـد تزايـد اهتمـام المجتمعـات بوسـائل الإعـلام والاتّصـال، خصوصًـا فـي أثنـاء الأزمـات والحـروب التـي باتـت تعتمـد فـي عصرنـا الحاليّ علـى هـذه الوسـائل، بشـكلٍ رئيـس، سـواء لنشـر أخبـار الجيـوش فـي الميـدان، أو لشـنِّ الحـرب النّفسـيّة علـى العـدوّ، أو لرفـع معنويّـات الشّـعب فـي أثنـاء الأزمـات. ولذلـك، بـات امتـلاك وسـائل الإعـلام حاجـة مُلحَّـة تجـاوزت الأهـداف الاقتصاديّـة والإعلانيّـة إلـى أهـداف سياسـيّة مباشـرة؛ حتّـى بـاتَ مألوفًـا نشـر معلومـات عـن شـخصيّات أو مؤسّسـات أو دول تمتلـك إمبراطوريّـات إعلاميّـة ضخمـة تضـمُّ عشـرات القنـوات الفضائيّـة العالميّـة، وتعمـل وفـاق توجُّهـات وتطلُّعـات سياسـيّة مُحـدَّدة. كمـا اتُّهمـت فـي الإطار نفسـه قنـوات فضائيّـة عدّة بالتّحيُّـز المباشـر، وعـدم الحيـاد فـي نقـلِ الواقـع كمـا هـو. وهـذا مـا حصـل علـى سـبيل المثـال فـي الحـرب التـي خاضتهـا الولايـات المتّحـدة ضِـدَّ العـراق عـام 1990، والتـي مَنَعـت فيهـا أيّ مراسـل صحفـيّ مِـن نقـل أيِّ خبـر إلَّا بعـد موافقـة القيـادة العسـكريّة عليـه، بحيـث أَطلـق البعـض عليهـا «الحـرب النّظيفـة» التـي أرادت الولايـات المتّحـدة لهـا أن تبـدو خاليـة مِـن ارتـكاب المجـازر وإراقـة الدّمـاء.

إنَّ امتـلاك وسـائل الإعـلام والسّـيطرة عليهـا شـأنهما شـأن أشـكال المُلكيّـات الأخـرى، متاحـان لِمَـن يملـك رأس المـال. والنّتيجـة الحتميـة لذلـك هـي: أن تصبـح محطّـات الإذاعـة وشـبكات التّلفـزة والصّحـف والمجلّات وصنـاعـة السّـينـمـا ودُور النّشـر مملوكـةً جميعًـا لمجموعـة مِـن المؤسّسـات والشّـركات والتّكتُّـلات الإعلاميّـة، بحيـث يصبـح الجهـاز الإعلامـيّ جاهـزًا تمامًـا للاضطـلاع بـدَوْر فعّـال وحاسـم فـي عمليّـة التّضليـل، هـذا بالإضافـة إلـى رقابـة صارمـة ومتواصلـة، علـى أيِّ فـرد، وفـي أيِّ وقـت، وفـي معظـم تنقُّلاتـه، تقـوم بهـا أجهـزة وكاميـرات مراقبـة متطـوِّرة مبثوثـة فـي الزّوايـا والطّـرق كافّـة.

ففـي المملكـة المتّحـدة، يُقـدَّر عـدد كاميـرات المراقبـة بنحـو 4,2 مليـون كاميـرا؛ أي كاميـرا واحـدة لـكلِّ 14 شـخصًا، مـا عَـدَّه كثيـرون انتهـاكًا لحقـوق الإنسـان ولحرِّيّاتـه الأساسـيّة. ولا يختلـف الأمـر كثيـرًا فـي بلـدان أوروبّيّـة أخـرى رأت أنَّـه لا يمكـن الجمـع بيـن مكافحـة الإرهـاب وحقـوق الإنسـان، وأنَّ علـى أوروبّـا أن تختـار مكافحـة الإرهاب.

حتّى أنَّ السّيّد «بن سول» (Ben Sol)، مُقرِّر الأُمَم المتّحدة الخاصّ المعنيّ بتعزيز حقوق الإنسان وحمايتها في سياق مكافحة الإرهاب، كَتَب في تقريره الأوّل إلى مجلس حقوق الإنسان (2024م): «إنَّ الجهود المُضنِيَة العالميّة لمكافحة الإرهاب على مَدَى عقدَين لم يُقابلها التزام قويّ بالقدر نفسه بحقوق الإنسان».

هكذا، تحوَّلت وسائل الاتّصال وتقنيّاتها المتطوّرة إلى سبب رئيس لفقدانِ الإنسان حرِّيّته التي اعتَقَدَ أنّه حصل على المزيدِ منها مع امتلاكه لهذه الوسائل نفسها التي جعلته تحت المراقبة الدّائمة.

وفي أثناء الحرب العالميّة الثّانية، اشتهرَ «جوزيف غوبلز» (Joseph Goebbels)، أحد مستشاري الزّعيم النّازيّ «أدولف هتلر» (Adolf Hitler)، بسياساته الإعلاميّة التي يستند فيها إلى مقولة: «اكذب، اكذب، اكذب حتّى يُصدِّقك النّاس»، حتَّى أنَّ «هربرت شيلر» (Herbert Schiller) كتب مؤلَّفه الشّهير قبل نحو نصف قرن «التّلاعب بالعقول» للدّلالة على ما تفعله وسائل الإعلام في تغيير الاتّجاهات والانتماءات وفي خداع النّاس. في حين استخدم البعض الآخر مصطلح «قصف العقول» للتّأكيد على الفكرة نفسها في توجيه الرّأي وإخضاع العقل.

وفي عصر التّطوُّر التّقنيّ والبثّ المتواصِل، لم تَعُد استراتيجيّة الكذب تكفي للتّلاعب بالعقول، فقد أُضيف إليها تحويل انتباه الرّأي العامّ عن المشكلات المهمّة والتّغييرات التي تُقرّرها النُّخَب السّياسيّة والاقتصاديّة إلى قضايا هامشيّة، بحيث باتت السّيطرة على توجّهات الشّعوب وخياراتها أكثر قدرة وفاعليّة. وبدل «اكذب، اكذب» بات الشّعار: اجعل الشّعب منشغلًا، منشغلًا بلا توقّف، بكرة القدم، وعروض الأزياء، وحياة الممثّلين... وبات المعيار مع التّقنيّات الحديثة هو نسبة المشاهدة التي تُركِّز عليها الوكالات الإعلانيّة، وليس نوعيّة ما يُعرَض أو أهمِّيّته.

وقد لا حظ بعض الباحثين اختفاء عدد مِنَ البرامج ذات الشّعبيّة الكبيرة مِنَ الشّاشة من دون تقدير لحرمان المشاهدين منها، بعدما تبيَّن أنَّ نوعيّات مشاهدِي هذه البرامج لا تجذب اهتمام المعلِنين.

في هذا الإطار مِنَ التّوجيه المبكر نحو ما يُسمّيه «آلان دونو» (Alain Deneault) «نظام التّفاهة»، كان رُوّاد السّينما في الثّلاثينيّات يَعلَمون عن أبطال هوليوود أو عن مَلِكة جمال أمريكا أضعاف ما يعرفونه عن إضراب الصّلب المحدود أو الحرب الأهليّة الإسبانيّة، بحيث لن يُتاح للرّأي العامّ أيّ وقت للتّفكير

في قضايا أكثر أهمِّيّة.

لقد تحوَّلت وسائل الإعلام، بتقنيّاتها المتطوِّرة في العصرِ الحديث، مِن وسائل للتّعرُّف على ما يجري في العالَم، إلى وسائل تضليل للرّأي العامّ، وإلى هيمنة على التّفكير في الوقت نفسه، وإلى تقييدٍ للحرِّيّات. لقد أصبح حَجْب المعلومات، أو توجيهها نحو ما ليس له أيّ أهمِّيّة أكبر أداة للسّيطرة والتّحكّم.

لذلك، عندما تُواجِه الحكومات أزمات تلجأ إلى وسائل الإعلام لِحَجْب المعلومات التي ستساعد في تسويغ سياساتها والدّفاع عنها. ففي فرنسا على سبيل المثال، تحرّض وسائل الإعلام على المهاجرين أو على الأقلِّيّات المُسْلِمة لتُلقِي عليهم وزْرَ التّراجع الاقتصاديّ والأزمات الاجتماعيّة والمعيشيّة التي تمرُّ بها البلاد، في الوقت الذي تحجب فيه هذه الوسائل تأثيرات الدّعم الفرنسيّ أو الأوروبّيّ لأوكرانيا في الحرب مع روسيا على التّراجع الاقتصاديّ في الدّول الأوروبّيّة.

إنَّ وسائل الإعلام تلجأ إلى تضليل الرّأي العامّ بتعمُّد إنكار الواقع، كما حصل مع المجازر والإبادة الجماعيّة التي ارتكبها جيش الاحتلال الإسرائيليّ في غزَّة ضِدَّ السّكّان المدنيِّين مِن نساء وأطفال، وتدمير مؤسّسات طبِّيّة وتعليميّة ودينيّة وغيرها بعد عمليّة طوفان الأقصى في 7 أكتوبر/ تشرين الأول 2023م، بعدما نفى رؤساء ومسؤولون غربيّون أصل وجود مثل هذه المجازر، حتّى أنّ الرّئيس الأميركيّ نفسه لم يتردَّد في القول إنَّه لم يلحظ في أيِّ تقرير وجود مثل هذه الإبادة! علمًا أنَّ وسائل التّواصل الإلكترونيّ كانت الأكثر فاعليّة في نقلِ صُوَر هذه الإبادة إلى شعوب العالم كافّة.

وفي أثناء الحرب الباردة التي استمرَّت نحو نصف قرن، وانتهت عام 1990م بتفكُّك الاتّحاد السّوفياتيّ، كان الإعلام أحد أَمْضَى أسلحة التّضليل التي استُخدمت ضِدَّ النّظام السّوفياتيّ وضِدَّ الاشتراكيّة، وكان يُطلق عليها الحرب النّفسيّة، وهي تُسمَّى اليوم «الحرب النّاعمة». وقد استهدفت هذه الحرب تشويه صورة هذا النّظام أمام شعوب العالم وأمام شعوبه في الوقت نفسه، حتّى لا يُعدّ أنموذجًا. فعملت وسائل الإعلام على تضخيم سلبيّات الاشتراكيّة، وجعلت الحياة في ظلِّها هي الجحيم عينه، في مقابل جنَّة الحرِّيّات الموعودة في الغرب؛ وذلك في محاولة لنزع ثقة الأجيال الشّابّة ببلدانهم، وتحفيزهم على التّفكير في مغادرتها إلى تلك الجنّة الموعودة، حتّى من دون أن يكون الوصول إليها آمنًا وموثوقًا.

لا تـزال هـذه الحـرب تُسـتخدم إلـى اليـوم، ضِـدَّ البلـدان التـي تنـاوئ الغـرب، أو تواجـه سياسـاته للهيمنـة والتّسـلّط؛ لهـذا لا يكـفّ الإعـلام الغربـيّ عـن شـيطنة الصّيـن وروسـيا وإيـران، وكوبـا، وفنزويـلّا، وسـوريا، وحـركات المقاومـة، أو أيّ بلدٍ آخـر لا يقبل بالهيمنـة أو التّبعيّـة. وتتّخـذ وسـائل الإعـلام بأشـكالها كافّـة الـدّور الأساسـيّ فـي هـذه «الشّـيطنة»، مـن خـلال تركيزهـا علـى عـزل النّظـام المسـتهدَف خارجيًّـا، وعلـى عزلتـه وعـدم شـعبيّته داخليًّـا، بحيـث تسـتغلّ هـذه الوسـائل أيّ حـادث اجتماعـيّ أو اقتصـاديّ أو سياسـيّ لتحريـض النّـاس علـى الابتعـاد عـن هـذا النّظـام، وعـدم الثّقـة بـه، والتّحريض عليـه بعـدم المشـاركة فـي أيِّ ممارسـة سياسـيّة، مثـل الانتخابـات أو غيرهـا.

فـي الحـرب الأخيـرة التـي شـنَّها جيـش الكيـان الإسـرائيليّ علـى غـزَّة بعـد 7 أكتوبـر/ تشـرين الأوّل 2023م، بـرزت تأثيـرات مهمّـة لوسـائل التّواصـل الإلكترونـيّ في مواجهـة وسـائل الإعـلام التّقليديّـة، وهـي المـرَّة الأولـى فـي تاريـخ التّطـوُّر التّقنـيّ التـي يتحـوَّل فيهـا هـذا التّطـوُّر إلـى غيـرِ مصلحـة الغـرب. فقـد حَجَبَـت القنـوات الفضائيّـة الغربيّـة أخبـار المجـازر التـي ارتكبهـا هـذا الجيـش ضِـدَّ النّسـاء والأطفـال، وبقيـت تلـك الوسـائل تُـردِّد السّـرديّة الرّسـميّة عـن «الإرهـاب» الـذي قامـت بـه حمـاس يـوم السّـابع مـن أكتوبـر/ تشـرين الأوّل، وسـرديّة أنَّ إسـرائيل تُدافِـع عـن نفسـها.

مـا فعلتـه وسـائل التّواصـل الإلكترونـيّ أنَّهـا اخترقـت هـذا الحَجْـب، ونقلـت مشـاهِد المجـازر الفظيعـة التـي ارتكبهـا الجيـش الإسـرائيليّ، والتـي انتشـرت فـي كلِّ أنحـاء العالم وخـرج بسـببها مئـات آلاف المتظاهريـن فـي العواصـم الغربيّـة يُطالبـون بوقـف العـدوان ويرفعـون شـعار «فلسـطين حـرَّة مِـنَ البحـر إلـى النّهـر»، بحيـث اعتـرف بعض قـادة العدوّ بخسـارة معركـة الـرّأي العـامّ السّياسـيّة والدّيبلوماسـيّة؛ أي خسـارة معركـة الإعـلام.

لقـد باتـت وسـائل الإعـلام فـي عصـر التّطـوُّر التّقنـيّ الهائـل والمتسـارع مِـن أهـمِّ أدوات الحـروب بمسـتوياتها العسـكريّة والسّياسـيّة والثّقافيّـة والنّفسـيّة؛ لصـوغ الوعـي وتشـكيل الـرّأي العـامّ. وهـي فـي الوقـت نفسـه مِـن أهـمِّ أدوات التّضليـل التـي تمارسـها قِـوَى وحكومـات ومنظّمـات.

إنَّ معركـة الإعـلام فـي عصرنـا الحاليّ لا يمكـن أن تكـون مُحايِـدَة، فهـي لا تنفصـل عـن جبهـات الحـرب التـي تخوضهـا الشّـعوب للدّفـاع عـن قضاياهـا، وتعزيـز الثّقـة بنفسـها فـي مواجهـة التّضليـل والتّفاهـة وحَجْـب الحقائـق.

طلال عتريسي